سياحة نقديّة في قصيدة «مات حيّاً» لعبد الجبار الفيّاض

هاني عقيل*

حينما يقرّر الشاعر أن يلج عتبة القصيدة ليلقي على جسدها لغة الحداثة، لا بدّ له من امتلاك الرؤى الحداثية ومخزون ثريّ من اللغة والدلالات، لبناء صورة فلسفية. فهو يعيد صوغ ما حوله لبناء رؤيته المثالية، وهو يتحدث عمّن حوله وعن نفسه. وهنا نرى أنّ الشاعر عبد الجبار الفياض في كل نصّ من نصوصه المبهرة، يحفل برؤى حداثية من طراز فريد، فهو في أحيان كثيرة، يتماهى وقصيدته ليصبحا كلّاً واحداً:

لغير ما يراه
أوقفوه
طينة تخلقت على مساحة وعظ أصفر...
سلخوا نهاره من عينيه
أطفأوا كل الأصوات في أذنيه
شدّ لسانه بقفص ببغاء...
تركوا له أنفاً
جمجمة فارغة إلّا من قصاصات لا تقرأ...
هل كان الموتى يتابعون نسختهم الأخرى
بإمضاء معتوه؟

عبد الجبار الفياض شاعر متمرّد على قانونه الفني وفق نظام اللانظام. فقصيدة النثر لديه لا بدّ لها أن تحفل بتلك الفوضى حتى على قوانين اللغة نفسها. وهو بين هذا وذاك، يعوّض تلك القوانين ببناء منظومته الصورية والايقاعية النبرية، فشكل البروس الحداثوي لا بدّ له من الهدم والبناء في آن واحد، وهذا ما يدعونا لأن نقف أمام جمالية الأسلوب الفريد للشاعر عبد الجبار الفياض. وهو هنا يفسر لنا كل ما انغلق علينا من تلك الرؤى:

صنعوه
معول حرب أخرس
حاطب ليل
يتنفّس موتاً
ما ليس في مقبرة...
ماذا يكون الجذع الميت غير قنطرة لعبور؟

*****

لوّثوا أرغفة الخبز بدم الذئب
وبكوا بعيونه
لرسم خطوط وهم
على وجه الفجر النائم في أحضان العتمة...
صفّق من ليس له إلّا منقوع
يشربه كلّ صباح
ويقبّل يداً ممغنطة بأساطير طُويت
وما أخفاه كهف رقيم
مسومة
بسخام زمن متشقق عن قبلة وداع
قشطت من شفاه حياة!..

لا بدّ من حضور الإيقاع المزامن لحضور الجوّ الشعريّ. ولا بدّ من استدعاء كافة البنى الجمالية والبنائية في النصّ لمرافقة المزاج الشعري لدى الشاعر. فعبد الجبار الفياض شاعر متمكّن من توحيد تلك المرتكزات داخل نصوصه الباذخة، مع الاحتفاء باشتراطات حداثوية من انزياح لفتح نوافذ النصّ أمام المتلقي نحو الشعر، بأسلوب يتميز بتلك الثنائية المعهودة لديه، إيقاعات صوتية وأخرى دلالية. وهو بذا يمنحنا نصّاً ذا هوية واضحَ المعالم لا ينضوي تحت أشكال الأجناس المتعدّدة.

يكفي أن أصبحت أسفلتاً تحت عربات خضار لم تأكلها...
مجمرة
تتلذّذها سيقان محظيات بأوراق البترول...
شاة
يرسم لها الجزّار خارطة للذبح!

*****

كان ابن فرناس غائباً
احتفال شمع
تحت قبّة شمس
يرفع لها تموز قبعته
لكنها لا تزيل ما تحت عمامة واعظ...

إنّ مظاهر التجديد والحداثة تتمظهر لدى الشاعر من خلال الإيقاع النثري. فمن المسلّم به أن قصيدة النثر لا وزن لها. إنما ينبغي أن يكون لها إيقاع. وهذا الإيقاع فيما لو اجتمع والوزن الشعري، قد يكون ثقيلاً متكلّفاً. وهذا ما جعل الشاعر يفرّق بين تلك الأجناس الشعرية لبناء إيقاعه النثريّ بعيداً عن الوزن الشعري المعروف. فنصوصه تحفل بإيقاع محدود لا يمكن أن يعرف. وهذا ما نرمي إليه بقولنا إنّ قصيدة النثر إيقاعية غير وزنية. والشاعر الحاذق استطاع تثوير اللغة لبناء الإيقاع لديه من خلال المحسّنات البديعية والتراكيب المستحدثة، ما جعل نصّه يحظى بنبرات موسيقية شفيفة:

لم يستعر دانيال قدمين لمغادرة بابل
ولا عبوديا هرب من وجه إيزابيل!
أروع بتاريخ

يبصق على ما علق بنعاله!

يحدث الإيقاع في النصوص النثرية لدى الشاعر الفياض من خلال الموازنة في ترتيب الألفاظ في جمل وعبارات، وكذا بين جملة وأخرى وتركيب وآخر. فهو يقدّم لنا نموذجاً لغوياً إيقاعياً وفق مرجعيات لغوية يحتفي بها الشاعر لبناء الأواصر الإيقاعية داخل النصّ.

جحا يتعرّى
يلوي عنان حماره
يفتت شتائمه عند كلّ نهيق...
معركة خاسرة
قربة تنضح عطشاً...
زمن صائم عن رفضه
أحرق لاءَه بباب الفرعون
أهدى نعمه لعصا هامان
شربت كلّ الأفواه الصمت!

على رغم أنّ الإيجاز والتكثيف من اشتراطات الحداثة، إلّا أنّ الشاعر العراقي يحاول أن يقدّم لنا شكله الحداثوي الذي يميّزه عمّن سواه. فمجمل تجاربه الحداثوية، وأخصّ قصيدة النثر، يلاحَظ عليها أنها نصوص طويلة. وهذا مما لا شك فيه يؤكد تمكّن الشاعر من بناء منظومية حداثوية طويلة مع احتفائها بكثافة لغوية. فكل مقطع من المقاطع يمثّل قصيدة بحدّ ذاته، في وقت يتوه الشعراء في بناء نصّ نثريّ واحد. وهذا يحسب للشاعر الفياض قدرته الفذة ونَفَسه الشعري الطويل، ولغته الواسعة وتمكّنه منها، تجليات رائعة ومكينة لقصيدة النثر العربية من بناء وهدم وتشظٍّ، ما مكّن الشاعر الفياض من فتح أقانيم جديدة ذات مغزى فلسفي، ومنحنا رؤى البوح الداخلي بفلسفة متفاعلة والرؤى التي نعيشها:

كبير أنت
أيها الحزن!
ما حملك إلا نبيّ
قلب دار عشقاً
على يمين استقر...
لا يعرفك سلطان إلّا عند رحيله
ومهزوم ألفت رأسه ركبتاه...

البناء والإيقاع الفنّي

إنّ بنية القصيدة النثرية الحداثوية لدى عبد الجبار الفياض ترتبط بأواصر حقيقية وقصيدة العمودي. إذ إنّ قصيدة النثر، وإن انفصلت عن الطيف الشعري الكلاسيكي الذي سبقها، إلّا أنها ترتبط بأواصر حقيقية معها، وإن تخلت عن إيقاع الفراهيدي. خصوصاً تلك التي يبنى عليها النصّ من معنى ولفظ وتراكيب وبلاغة. والشاعر عبد الجبار الفياض يدرك هذه، أو الأواصر. لذا، نرى مجمل نصوصه البلاغية تحتفي ببناء تلك الأواصر. وهذا ما يعطي قصيدة النثر العربية هويتها وخصوصيتها. فقصيدة النثر لديه نظام شعريّ يتكوّر حول نفسه، ينفتح ببداية كيفما اتفق، ويستمر وهو يسحّ على جسد القصيدة، تلك الرؤى البنائية المميّزة لدى الفياض، حتى يختم تلك الفيوضات الشعرية بنهايات مفتوحة:

لغير ما يراه
أوقفوه
طينة تخلقت على مساحة وعظ أصفر...
سلخوا نهاره من عينيه
أطفأوا كل الأصوات في أذنيه
شدّ لسانه بقفص ببغاء...
تركوا له أنفاً
جمجمة فارغة إلّا من قصاصات لا تقرأ...
هل كان الموتى يتابعون نسختهم الأخرى
بأمضاء معتوه؟

يتميّز البناء الشعري لدي الفياض بطول النصّ. وهو قلّما ما يكون مقطعاً أو مقطعين. إنما هو يتعدّى ذلك إلى مقاطع كثيرة. تتميز هذه المقاطع ببلاغة تراكيبها وفخامة تكوينها. تحتفي بحدود الزمان والمكان وفق اشتراطات مكانية حداثوية لتسحّ لنا هطولاً مشرقاً تتعرّش المجهول لتفتح نوافذ العبور نحو ذاك القابع خلف غلالة من طين:

أيها المستبطن صدور صعاليك
كلّ العصور
لولا كنت قمقماً
ونزعت غطاءك المبتلّ
بدمع اليابسات من سنيّ يوسف
الضارعات من سنوات موسى
داميات الحجّاج...
لاختفى زبدٌ
ورمٌ
نابٌ وظفرٌ
وتبسّم الغفاري بوجه الصبح
وكان الخبز لكل فم!

يعمد الفياض إلى الكثافة اللغوية لدج هندسته البنائية خدمة للفكرة المطروقة في النصّ. فهي كتلة صلدة بعدّة أطياف. وهو يقدّم لنا لوناً من ألوان الشعر أشبه ما يكون بالموشور متعدّد الأطياف والرؤى. وهذا ديدنه إذ يعدّ الفياض من الشعراء القلائل الذين تمكّنوا من فهم البروس بشكل عام وقصيدة النثر الحداثوية بشكل خاص:

القابعون خلف الوجع
لا يتألّمون...
ينزعون وجوههم حين تتساقط أوراق التوت

مما يلاحَظ في نصوص الشاعر الفياض، وبشكل جليّ، احتفاء نصوصه بنوعين من الإيقاع. وهنا لا نعني بالضرورة إيقاع الفراهيدي، أو الإيقاع الداخلي. كلّا، فهذا مما لم يتيسر للبعض ممّن تناولوا تجربة الفياض الشعرية، أن يتنبهوا له. ونعني بهذين الإيقاعين: الإيقاع المعنوي، والإيقاع الشكليّ الظاهر.

الإيقاع المعنوي

لا بدّ من إدراك أنّ اللفظ كونه كلام وخطاب صادر من المتكلم، وموجّه إلى ذهنية المتلقي، هو صورة معنوية وإيقاع معنوي، على رغم مرافقته صورة شكلية وإيقاعا شكليا للمفردة. وقصيدة النثر الحداثوية هي أطروحة للشعر الاختزالي. فهي تختزل الشكل وتحتفي بالمعنى، سواء كان صورة أو إيقاعاً. فذهنية المتلقي تعمل على استقطاب تلك الثنائية الإيقاعية لدى تناول نصوص الفياض الحافلة بها:

لم يستعر دانيال قدمين لمغادرة بابل
ولا عبوديا هرب من وجه إيزابيل!
أروع بتاريخ
يبصق على ما علق بنعاله!

الإيقاع الشكليّ الظاهر

بعدما تخلّت قصيدة النثر الحداثوية عن إيقاع الفراهيدي الموسوق، اتّجهت إلى إيقاع اللفظة والمفردة والتركيب. وهذا يؤكّد ارتكازها على اللغة كونها الميدان الذي تقوم عليه. ونصوص الشاعر عبد الجبار الفياض تحفل بإيقاع بلاغيّ هو من فيوضات تلك التراكيب البلاغية المستحدثة، وأوجه البلاغة من استعارة وتشبيه وبناء شكلي للنصّ من خلال الجمل الإسمية والفعلية وشبه الجملة، وهي في كل هذا مستحدثة بفعل الإزاحة الرائعة التي يوردها الفياض هنا:

أيها الموصول بأورام أرض
أتعبتها لغرباء قدم
يكفي أن أصبحت أسفلتاً تحت عربات خضار لم تأكلها...
مجمرة
تتلذّذها سيقان محظيات بأوراق البترول...
شاة
يرسم لها الجزّار خارطة للذبح!

* باحث وناقد عراقي

ومضات

● كثيراً ما يدفعنا فكرنا لمخاصمة الله، فهل يعني ذلك أن مصدر فكرنا غير إلهيّ؟

● بسطت كفي اليمين في الضوء وقبضتها لأستجمع الضوء فيها، كما بسطت كفي اليسرى في الظلمة وقبضتها لأستجمع الظلمة فيها، وعدت لأبسط كفي اليمين في الظلام فلم أجد ضوءاً، كما بسطت كفي اليسرى في الضوء فلم أجد ظلمةً، فهل الظلمة تبتلع الضوء، والضوء يبتلع الظلمة؟

● عندما يستفيق المطر ذات صباح، سيُسكِت صهيل قلبي، إلّا أنّ صداه سيبقى يصدح في كلماتي التي تركت.

د نسيب أبو ضرغم

«عناية مشدّدة» ... الواقع المؤلم في ظلّ الأزمة

شذى حمّود

يضع مسلسل «عناية مشدّدة» الوجع السوري بقوّة أمام المُشاهد، من خلال مجموعة من الخطوط الدرامية المتنوّعة، ومجموعة من الشخصيات المُغرَقة بواقعيتها، ما يشكّل دخولاً درامياً لأكثر الزوايا المظلمة في المجتمع السوري في هذه الفترة، والتي جاءت كانعكاس للأزمة.

واستطاع كاتبا مسلسل «عناية مشدّدة» يامن الحجلي وعلي وجيه، أن يرصدا ما تعانيه سورية وأبناؤها في ظلّ الازمة، لا سيما خلال السنتين الأخيرتين، من أحداث اجتماعية واقتصادية صعبة، إضافة إلى الأحداث الأليمة التي تشهدها البلاد عبر حكايات اجتماعية وعلاقات متشابكة وقصص حبّ.

وعلى مستوى الإخراج؟ يحقّق المخرج أحمد ابراهيم أحمد نقلة مميّزة في مسيرته عبر هذا العمل، مع قدرة استثنائية في رصد تفاصيل الواقع وسبر أغوار الشخصيات التي يقدّمها، مع تعاط ذكيّ في حركة الكاميرا وزوايا التصوير، وضبط احترافيّ للطاقم وحركة المُمثلين وأدائهم.

ويعالج المسلسل مجموعة من القصص الاجتماعية، منها عائلة «أبي معتصم» الذي يجسّد شخصيته الفنان عباس النوري، وهو ربّ أسرة وموظف حكومي يعمل في مصلحة النفوس، مستغلاً مكانه ليصل إلى منصب أعلى في المؤسسة.

أما شخصية «هموم» التي تجسد دورها الفنانة أمانة والي، فهي ذات طابع صادم لأنها تتعامل مع عصابة تتاجر بالأعضاء البشرية. أما «كمال بيك»، فيلعب دوره الفنان سليم صبري، وهو أحد تجّار الأزمة الذين كان لهم دور كبير في إرهاق المواطن السوري لأجل منافعهم الشخصية.

ويسلّط المسلسل الضوء على نماذج لشخصيات سلبية كانت موجودة في مجتمعنا، لكنها ظهرت خلال الأزمة بعدما توفّرت لها فرص كثيرة كالمال، وأصبحت موجودة بيننا وبكثرة، منها شخصية «زكوان» الذي يجسّد دوره الفنان مهيار خضور، وهو مجرم وملاحَق من القانون، فهو يقوم بأعمال السرقة والخطف والتزوير وصولاً إلى التجارة بالأعضاء البشرية.

ويحاول «عناية مشدّدة» أن يضيء على بعض المفاصل الأساسية في الأزمة، ومنها محبة المخلصين لوطنهم، وتفانيهم وتقديمهم الغالي والنفيس من أجل أن تبقى سورية حرّة وكريمة. ومنهم «رافع» الذي يؤدي دوره الفنان فادي صبيح، وهو ضابط في الأمن بقي نموذج المواطن السوري الشريف الذي يحبّ وطنه ويدافع عنه.

وجاءت شارة المقدّمة الخاصة بالعمل علامة فارقة، وأدّاها الفنان آدم، وكتب كلماتها الفنان أدهم مرشد، ولحّنها الموسيقي رضوان نصري. فكانت من أكثر أغاني الشارات التي تركت كلماتها وألحانها صدى لدى المشاهدين، لما تحمله من حنين وأمل بالعودة إلى أيام سورية الجميلة، وأن شعبها متل شجرها، يموت ولا ينحني، كما تقول كلماتها.

أدّى أدوار البطولة في «عناية مشدّدة» كل من عباس النوري، أيمن رضا، مهيار خضور، يامن الحجلي، سليم صبري، فادي صبيح، رامز الأسود، أمانة والي، مرام علي، آندريه سكاف، علي كريم، محمد قنوع، مهند قطيش، غادة بشور، نزار أبو حجر، عهد ديب، تولين البكري، وحلا رجب، وسيم قزق وآخرون.

من هنا وهناك

● لا يستقطب مسلسل «أمير الليل» للكاتبة منى طايع فقط نجوم الغناء مثل الفنان رامي عياش والمخرج فادي حداد في تجربته الدرامية الأولى، إنما سيشمل هذا الاستقطاب نجوم التمثيل من المغتربين. فبعدما عاد الممثل أسعد رشدان من غربته الأميركية ليشارك في هذا العمل، عادت الممثلة ميراي بانوسيان من بلجيكا، مشيرة إلى أنها ستكون واحدة من «كاستينغ» «أمير الليل» بدور جميل لم تفصح عنه، كذلك ينتظرها تعاون آخر في مسلسل للكاتبة كلوديا مرشيليان لم تحدّد تفاصيله. أما على صعيد المسرح، فستكون على موعد في تشرين الثاني المقبل في بروكسل في شخصية «أمّ طعان».

● تعود المخرجة السورية رشا شربتجي، بعد نجاحها في إخراج مسلسل «علاقات خاصة»، إلى لبنان لتلتقي «شركة الصباح» وتستكمل الاجتماعات التي بدأتها مع المنتج صادق الصباح للبحث في تفاصيل تنفيذ مسلسل «سمرة»، وهو من تأليف الكاتبة كلوديا مرشيليان، بعدما اعتذر المخرج فيليب أسمر عن إخراجه لتزامنه مع إخراجه مسلسل آخر.

مسلسل «سمرة» من بطولة الممثلة نادين نسيب نجيم، وآلكّو داود، ونهلا داود، وطوني عيسى وغيرهم. ويتناول موضوع الغجر الذي تتطرّق إليه الدراما للمرّة الأولى.

● أدى روبوت بريطاني سُمّي «تايتن»، بالتعاون مع أطفال من فرقة غنائية، يوم 1 تموز، مقطوعات من أعمال الأوبرا الكلاسيكية المشهورة، وأغان معروفة. وذلك ضمن حفلة غنائية قدّمت في الساحة العامة المقابلة لمسرح «بولشوي» في وسط العاصمة الروسية موسكو.

ووصل الروبوت «تايتن» إلى موسكو مؤخراً لتقديم عروض في معرض الروبوتات الذي سيبقى مفتوحاً في معرض المنجزات لعموم روسيا حتى 23 آب المقبل، علماً أن الروبوت المحبوب من قبل كثيرين سيعود إلى بريطانيا يوم 26 تموز.

● تلقّى المخرج السينمائي الروسي المعروف آندريه زفياغينتسيف دعوةً من الأكاديمية الأميركية السينمائية للعضوية في لجنة تحكيم جائزة «أوسكار». وأفادت بذلك صحيفة «Deadline» الأميركية التي قالت إنه، في حال قبول زفياغينتسيف تلك الدعوة، سيحق له التصويت على المرشحين لنيل الجائزة.

وتشمل قائمة مَن وُجِّهَت إليهم دعوات الانضمام هذه السنة إلى لجنة التحكيم، 322 شخصاً، من ضمنهم المخرجون بافليكوفسكي وجيمس غان وفرانسوا أوزون وغيرهم.

أما لجنة التحكيم للأكاديمية السينمائية الأميركية فتضم أكثر من 6 آلاف شخص يمثّلون مختلف الرابطات السينمائية. ويضاف إلى هذا العدد كل سنة أعضاء جدد.

يذكر أن المخرج الروسي آندريه زفياغينتسيف معروف بإخراجه فيلمَي «يلينا» عام 2011، و«الطاغوت» عام 2014 الذي أُدخِل في القائمة القصيرة لنيل جائزة «أوسكار».

الذكرى 29 لرحيل الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس

الكُتَبيّ الذي أنار العالم وهو «بصير»!

محمد محمد الخطّابي*

في الرابع عشر من حزيران الماضي، مرّت الذكرى التاسعة والعشرون لرحيل الكاتب الأرجنتيني المعروف خورخي لويس بورخيس، أحد أقطاب الأدب الأميركي اللاتيني الكبار، الذي وُلِد في 24 آب 1899، والمتوفي عن سن تناهز 87 سنة 1986، أكبر احتفاء نُظِم في إسبانيا لهذا الكاتب الفذ كان قد أُقيم ضمن فعاليات ندوة دولية عُقدت في العاصمة الإسبانية مدريد، في ذكرى رحيله قبل الأخيرة، تحت عنوان «الكتاب مثل الكون»، كانت أرملة الكاتب الراحل ماريا كوداما قد شاركت فيها بعرض ضاف قامت خلاله بتحليل دقيق لعلاقة بورخيس الحميمة بالكتب والمكتبات، نظراً إلى مزاولته مهنة مدير للمكتبة الوطنية في بوينس أيريس في مقتبل عمره، كما سلّطت الأضواء على المعايشات التي تسنّى لزوجها من خلالها خلق «عوالم مكتبية» فسيحة خاصة به في عدد من أعماله، حتى أصبح هذا الهاجس عنده رمزاً كلاسيكياً للثقافة المعاصرة. وتطرّقت كوداما (التي هي كذلك رئيسة «المؤسسة الدولية خورخي لويس بورخيس») خلال هذه الندوة إلى مذكراتها التي تفصح فيها عن حياتها الخاصة مع بورخيس، وسفرياتها معه، كما تتضمن المذكرات عدداً من الأخبار، والأسرار التي لم يسبق نشرها أو ذيوعها حول بورخيس من قبل.

وتعتب كوداما في كل مناسبة على النقاد الذين تطاولوا أو تهجموا عليها أو على زوجها بعد رحيله. وقالت إن مذكراتها تسلّط الأضواء على كل ما كان مبهماً ومجهولاً في حياة بورخيس، ذلك أن أناساً وكتّاباً ونقاداً كثيرين نشروا غير قليل من الأكاذيب والمبالغات حوله.

كما أكّدت ماريا كوداما في هذا القبيل كذلك، أن نشر هذه المذكرات جاء نتيجة المعاناة التي كانت تشعر بها، إذ سبّب لها كل ما نشر حول بورخيس حزناً عميقاً، وقلقاً مفرطاً وصل بها حدّ الاكتئاب. لا بل أن كل تلك الأكاذيب الملفقة أصابتها بالدهشة، من هؤلاء الذين يطلقون الكلام على عواهنه، حتى لو لم يتعرفوا قط إلى بورخيس، على رغم أن بورخيس لم ينظر قط بعين الازدراء أو الاحتقار أو الاستصغار نحو أي كاتب أو أي عمل أدبي، بل إنه كان يكن الاحترام للجميع، حتى إن لم يتعاطف مع بعض هؤلاء الكتّاب الذين كان لا يتورّع من انتقاد بعضهم، ذلك أن النقد عنده كان يعني ضرباً من «اللعب» نظراً إلى طبعه المرح الذي يميل إلى السخرية والتسرّي، إذ كان يطبق ذلك حتى على نفسه وأعماله»!

البصير الذي استضاء به قومه

تعرّضت ماريا كوداما على وجه الخصوص إلى المرحلة التي كان فيها بورخيس مديراً للمكتبة الوطنية في العاصمة الأرجنتينية، بوينس أيريس، وعلاقته الحميمة مع مكتبته الخاصة، ومع الكتب عموماً. فضلاً عن صلاته وآرائه حول عدد من المؤلفين والكتّاب ومنهم: كيبلينغ، وايلد، سيرفانتس، كيبيدو، شكسبير، شوبنهاور، وسواهم من الكتّاب والمبدعين الآخرين الذين كان بورخيس يبدي نوعاً من التعاطف معهم، والإعجاب بهم. وأكدت أرملة بورخيس أن زوجها ظل يقتني الكتب بنوع من الهوس، حتى بعد مرحلة إصابته بالعمى، لا بل أنه خلّد اسم المكتبة في إحدى أشهر قصصه القصيرة وهي بعنوان «مكتبة بابل». وكتب عدداً من النصوص عن الكتب والكتاب والمكتبات طول حياته، وأشاد غير قليل من النقاد من مختلف بلدان العالم بإبداع هذا الكاتب الرائع الذي بدأ حياته «كتبياً» بسيطاً، وعلى رغم عاهة العمى التي أصابته في شرخ عمره، أمكنه أن ينير عوالم المبصرين، وأن يستضيء القوم به، وبأدبه وإبداعاته الوضّاءة.

وقالت ماريا كوداما: إن بورخيس أشاد في كتابه «المتآمرون» بطيبة الناس، وسجاياهم الفطرية، خصوصاً بعد فترة إقامته في جنيف عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، وكان بورخيس يؤكد أن هذا البلد كان مثالاً فريداً للتعايش والتسامح لتعدّد اللغات التي يتحدثها الناس به، وكثرة دياناته، ففي هذا البلد تحترم الفوارق من دون محوها أو العمل على إذابتها. لقد لمس بورخيس بنفسه في هذا البلد كيف يحترم الناس اللاجئين والمغتربين، إذ ترك ذلك فيه أثراً بليغاً.

وكانت أرملة بورخيس ماريا كوداما قد صرحت في السياق نفسه، بأن بورخيس لو كان على قيد الحياة اليوم لحظي بالتقدير نفسه الذي أولاه إياه قرّاؤه والمعجبون به وبأدبه في حياته. فإضافة إلى عبقريته الإبداعية، كان رجلاً وفياً لمبادئه، مخلصاً لأفكاره. وتضيف كوداما: «إن هذا ناتج عن كون الناس يعترفون بجانب الصدق في إبداعاته الأدبية أو بالنسبة إلى مسيرة حياته». فبورخيس تعرّض لهجوم عنيف لمناهضته للبيرونية، وقد حرموه من عمله الوظيفي خلال العهد البيروني، أي خلال حكم خوان دومينغو بيرون (1945-1955)، كما أن آراءه في بينوشيه جعلت الأكاديمية السويدية تحرمه كذلك من جائزة «نوبل» في الآداب، وهو الأديب العالمي الذي يحظى باحترام مختلف الأوساط الأدبية في مختلف أنحاء المعمورة. وتضيف كوداما: «هذه الصراحة التي تميز بها بورخيس حرمته من عدد من الفرص المماثلة».

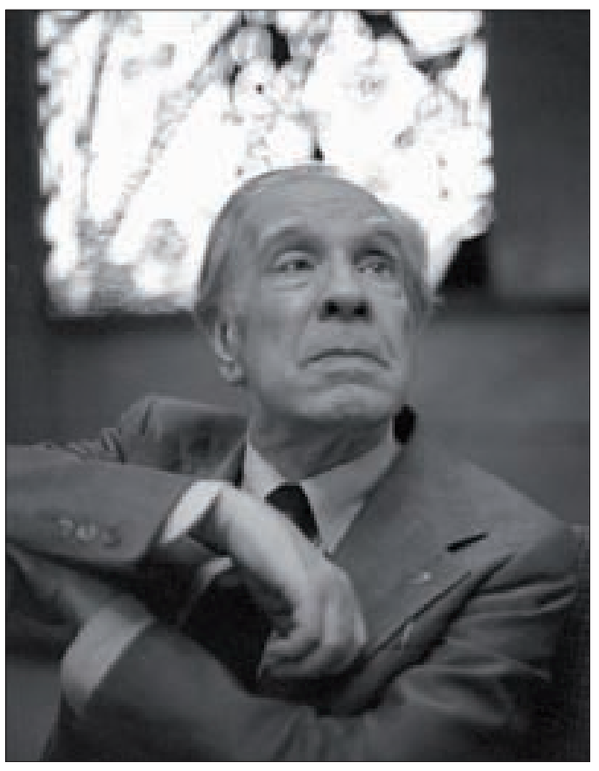

تعرّفت كوداما على بورخيس في سنّ المراهقة، إذ لم يكن عمرها يتجاوز 13 سنة، ذلك أن أباها وهو كيماويّ يابانيّ كان صديقاً للكاتب، وعندما ماتت والدة بورخيس حلّت كوداما محلها، إذ تفرّغت إلى تدوين ما يمليه عليها بورخيس من أعمال أدبية، إذ كان قد أصيب بالعمى منذ 1950، وصارت ترافقه في رحلاته وسفرياته وتجواله.

وفي نيسان 1985، تمّ زواج بورخيس بماريا كوداما، وكان عمره 85 سنة، في حين لم يكن عمرها يتجاوز 41 سنة، وفارق السن بينهما أفسح المجال لعدد من التعليقات من كل نوع، ليس فقط من طرف الناس، أو الكتّاب أو النقاد، بل حتى من طرف وسائل الإعلام، إلا أن بورخيس وكوداما كانا يستقبلان هذه التهجمات بنوع من الهدوء واللامبالاة، وقد وقفا بالمرصاد لألسنة السوء التي تحوّلت عند موت الكاتب إلى «كتب ملتهبة» حول العلاقة التي تجمع بينهما، كما كانت هناك خلافات، ونزاعات في شأن إرث بورخيس، إذ ما فتئت الانتقادات اللاذعة والتهجمات الشديدة توجّه إلى ماريا كوداما إلى اليوم، من مختلف الجهات داخل بلدها الأرجنتين وخارجه.

مسالك ومتاهات بورخية

تتميز هذه المرأة التي لا تستقرّ في مكان، والتي لم تفتأ تسافر من بلد إلى آخر بحماسة متّقدة ونشاط متواصل، وهي تلقي المحاضرات من دون انقطاع حول أعمال زوجها الواسعة والغزيرة، بسحر خاص، وجاذبية لا تقاوم. فإضافة إلى نشاطها ككاتبة، قامت بالإشراف التام على بناء حديقة في بوينس أيريس أطلق عليها «متاهات بورخية»، إذ كانت قد تلقت «مؤسسة بورخيس» في شكل هدية تصميماً لهذا المشروع المستوحى من أعمال بورخيس، وهو من وضع راندال كواطي، الذي كان يعمل دبلوماسياً لبريطانيا في بوينس أيريس، كما قامت ماريا كوداما من دون كلل بإجراء اتصالات مع بلدية العاصمة الأرجنتينية في هذا الشأن، وعملت بنشاط منقطع النظير على غرس الأشجار التي أحيطت بـ«منتزه بورخيس»، كما عملت أيضاً على تنظيم ندوات كبيرة متعدّدة لعلماء اللغة الإسبانية سلطت فيها الأضواء على أعمال بورخيس الإبداعية، التي نُظّمت في الأرجنتين وفي بعض بلدان أميركا اللاتينية وأوروبا، كما عملت على إصدار الأعمال الكاملة لبورخيس بعدما أضيفت إليها جميع التعديلات والتنقيحات التي قام بها الكاتب نفسه قبيل رحيله. كما قامت مع عدد من الجهات التي تعنى ببورخيس وبأعماله على إعداد مشاريع وأنشطة أدبية أخرى موازية، كوضع باقات من الورود، والقصائد على واجهات السيارات في مناسبات عيد ميلاد بورخيس الذي يصادف 24 آب من كل عام. وتنظيم ندوات دراسية في تواريخ متفاوتة، وأماكن مختلفة حول بورخيس وأدبه، بمشاركة عدد من الأساتذة الجامعيين والباحثين والمهتمين ومتتبعي أعمال هذا الكاتب الكبير.

وتقول أرملة صاحب «الألف»: «لقد صنفوا بورخيس كسيّد فيكتوري، يتحدث عن متاهات ونمر ومرايا، إلا أنه كان شخصاً لطيفاً خفيف الروح ومغامراً. كانت أمنيته وحلمه أن يعيش في زورق في مجرى غياب نهر التامسيس، إلا أنه عندما تزوجني جعلته يتخلى عن هذه الفكرة بعدما حدّثته عن المخاطر التي قد تعتريها، كما أنه كان يستقبل عدداً من الكتّاب والنقاد والطلبة والمعجبين به».

وتشير الناقدة فيكتوريا أسوردوي إلى أن غاية كوداما من نشاطها المتواصل على رأس «مؤسسة بورخيس»، الاستمرار في إعلاء الشعار الذي سبق أن رفعته وتبنّته منذ رحيل زوجها، المتمثل في إخلاصها الدائم لهذا الرجل الذي لا تفتأ تصفه في كل مناسبة بأنه كان ذا حساسية مفرطة، إذ عانى بسبب ذلك الكثير، إلا أنه أمكنه دائماً إنقاذ أعماله من المشاكل اليومية ومن صروف الدهر والحياة.

لم ينفك العالم حتى اليوم يعمل على اكتشاف أعمال ذلك المبدع الأرجنتيني الذي حُرم نعمة البصر، ولكنه وُهب بالمقابل بصيرة نافذة ثاقبة، والذي يذكّرنا عندما نقرأ له ببشار والمعري وأبي علي البصير، وطه حسين، ويوسف الدجوى، وإبراهيم الإيباري، ومحمد المعداوي، ومحمد حسنين البولاقي (والد أحمد حسنين باشا) وسواهم.

تقول كوداما: إن عفة بورخيس واحترامه الآخرين جعلا أدبه يتّسم بالعمق والشفافية والصدق. إذ جعل من هذه الأعمال بحثاً دائماً عن كنه الإنسان وماهيته. وقد أدخلت هذه الأعمال السرور والفضول والمتعة والتطلّع في قلوب القرّاء وعقولهم في مختلف أنحاء العالم على تفاوت أعمارهم. وما يزال تأثيرها يتعاظم على مرّ السنين، ليس فقط في اللغة الإسبانية التي كتب بها هذه الأعمال، إنما في مختلف اللغات التي نقل إليها هذا الأدب وفي مقدّمها اللغة العربية.

كلمات بورخيس الأخيرة

ما هي الكلمات الأخيرة التي أملاها الكاتب خورخي لويس بورخيس قبيل وفاته في جنيف؟ لقد كان الجواب عن هذا السؤال حتى الآن سرّاً محفوظاً من طرف ماريا كوداما. إلا أن مطبوعاً تحت عنوان «تقديم بورخيس الأخير» كان قد صدر في بوينس أيريس، أثار جدالاً حاداً بين قرّاء بورخيس ونقاده والمعجبين به.

بادرت ماريا كوداما على إثر ذلك إلى توجيه مجموعة من الرسائل إلى مختلف الجرائد والمجلات الأرجنتينية توضح فيها ما يلي: «أريد أن أنبّه القراء إلى مدى الزيف الذي ينطوي عليه هذا العنوان». فبحسب أرملة الكاتب، إنّ التمهيد الأخير الذي كتبه الكاتب، هو المتعلق بالطبعة الفرنسية لأعماله الكاملة ضمن السلسلة «بلياد» عن دار النشر الفرنسية المعروفة «غاليمار».

وتؤكّد كوداما أن بورخيس كان قد أملى عليها هذا التقديم، إلا أنه لم يتمكن من إنهائه وإتمامه، وتضيف كوداما: «إن ناشر هذه الأعمال الكاملة وهو الفرنسي جان بيار بيرنيس شرح كيف أن هذا هو بالفعل التقديم الأخير لكتب بورخيس في حياته، والذي ظهر أو أدرج في ما بعد ضمن الأعمال الكاملة إياها. لماذا إذن وكيف ظهر النص الأرجنتيني الذي سبب إثارة هذا النقاش بين النقاد والمثقفين والمعجبين والمتخصصين في بورخيس؟ الواقع أن هذا الكتاب يضم 11 قصة لبورخيس. وفي التقديم المختصر الذي وضعه لهذا الكتاب يشير إلى أن تسعة من الأعمال المدرجة في هذا الكتاب، هي من أجمل منتقيات إنتاجه الأدبي.

ثمّ تشك ماريا كوداما بالتالي في صحة هذا التقديم ومصداقيته، الذي يقول بورخيس فيه: «لقد خامرني الشك ذات يوم بكون الأعمال الكاملة إنما هي خطأ ذو أصل تجاري أو احترافي، فأي رجل له الحق في أن يستمع إلى حكم النقاد حول أنصع صفحاته، وليس فقط حول تسليات وشطحات قلمه أو رسائله العرضية، إنني أريد أن أتصور أحكام النقاد حول النصوص التسعة بالذات الموالية، لا حول صدى تلك القصص في الذاكرة».

* باحث وناقد مغربي